﴿ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ [الفجر: ٨].

؟

لم يُخلق مثلها في البلاد **ألم يكن لها مثيل أو شبيه**

فالخطاب كان موجهًا إلى رسولنا الكريم ﷺ، فلو افترضنا أن الخبر (لم يُخلق مثلها في البلاد) كان يقصد به إلى زمن هود عليه السلام، فتلك الحقبة كانت حقبة قصيرة بين هبوط آدم عليه السلام من الجنة إلى زمن هود عليه السلام، حيث إنه زمن لم يكن بزمن بناء وعمران، فهود عليه السلام كان رابع الرسل بعد آدم عليه السلام، والثاني بعد نوح عليه السلام (آدم – إدريس – نوح – هود) عليهم السلام وحيث كانت بعثته بعد نوح والطوفان، وقد طمر الطوفان معالم الحياة، فلا يوجد وجه للشبه والتشبيه، إلا بما يخبرنا به الله.

وكما ذكرت، فإن الإخبار كان لخاتم الأنبياء محمد ﷺ: ﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾ حتى زمنه عليه الصلاة والسلام، وذلك لِما سبق من تعاقب وتتالي حضارات بشرية وعمرانية تفي للمقارنة: كالثمودية في جزيرة العرب، والنبطية بالأردن، والأشورية والأكادية والسومرية في بلاد الرافدين، والإغريقية اليونانية والرومانية في أوروبا والشام والفرعونية بمصر، والديلمية والفارسية في بلاد ما وراء النهرين، والصينية والهندية والسندية وغيرهم كثير، ممن أبدعوا في فن العمارة والأعمدة والبناء.

وقد بحثت في جميع الحضارات الإنسانية المعمارية على وجه الأرض، حيث إنني في طور تأليف كتاب (الحضارات المعمارية عبر مر العصور منذ العصر الحجري عصر الكهوف حتى وقتنا الحاضر)، فما هذا البناء وما هذه العمارة لهذه المدينة التي اختصها الله، وذكرها بالذات بالتميز المعماري والإنشائي عن سائر المدن، ولا تقارن بأي مدينة أخرى، ولا مجال للمقارنة بها، ثم محاها وأخفاها، فكيف يحق، وكيف يمكن لعقل أن يتخيلها، ليقارن بها لِما هو ملموس في عصر المقارِن، فوجه الشبه غير مقارَن؛ لأن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو من أخبرنا أنه: ﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ﴾.

﴿لَمْ﴾ هنا أداة نفي تنفي وقوع الحدث في الماضي إلى لحظة الإبلاغ عنه، فهنا المُخبر هو الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ فعندما يخبرنا أنه: ﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا﴾ فذلك يلزم به التصديق: أنها الفريدة من نوعها، والوحيدة في الخلق، حيث إن الآية تذكر أنها خلق Creation، والخلق يأتي من العدم، فإذا كانت خلقًا فالخلق يكون لله وحده، والفعل يُخلَق فعل ماضٍ، فقد خلق الله قوم عاد بصفة جسمية مختلفة عن سائر بني البشر: ﴿وَزَادَكُمْ فِي ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩]، وذلك لتنفيذ عمل منوط بهم من قبل الله، فالآمر في هذا العمل (خلق مدينة إرم) هو الله، والمأمور لتنفيذه هو هذا الإنسان، الذي بدل الله في خلقته لينفذ العمل.

والخلق هنا لم يكن خلقًا إلهيًّا مباشرًا بـ (كن)، فهو خلق بأمر الله بتنفيذ مخلوق، ميزه الله في خلقته، ومنحه بسطة في الجسم عن سائر البشر؛ ليستطيع تنفيذ ما أمره الله به، وفي حق مدينة إرم قال: ﴿لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا﴾، وهذا هو الفارق بين جميع ما بني على وجه الأرض وبين خلق إرم، لتكون هي الفريدة من نوعها، والوحيدة التي كانت خلقًا، ثم محاها، وله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حكمة إلهية في خلقها ومحوها، وله الأمر من قبل ومن بعد.

وحيث إنها قد دخلت في مضمون الخلق، والخلق إبداع، فتكون خارج نطاق الخيال البشري، فالعقل يستطيع أن يتخيل ما يلامسه النظر في وقت المُتخيل من مواد بناء وتصميم، ولا يمكن معرفة ما هي معايير التصميم، وما هي مواد البناء التي شُيدت بها تلك المدينة في تلك الحقبة، فكل من قال عن طريقة البناء وأسلوبه، فقد كان يفسرها بما كان يتعايش معه في زمنه، ولا أستطيع الأخذ بالإسرائيليات؛ لأنها أتت بعدهم بزمن بعيد، وقد حُرفت كتبهم، وتفننوا في سرد الكثير من الأساطير على مر السنين.

وكلٌّ قد حاول إطلاق عنان خياله لِما ذُكر في القرآن عن مدينة إرم بما استطاع أن يسترسل في تخيلها، ولكن يعجز العقل أن يصل إلى تخيلها ووصفها، فقد جعلها الله مدينة غامضة، عبرة ليُتعظ بها إلى يوم يبعثون، فهي: ﴿ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾، وسورة الغاشية خير مثال حي على عجز الخيال، وعلى قدرته، وذلك في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فِيهَا سُرُرٞ مَّرۡفُوعَةٞ ١٣ وَأَكۡوَابٞ مَّوۡضُوعَةٞ ١٤ وَنَمَارِقُ مَصۡفُوفَةٞ ١٥ وَزَرَابِيُّ مَبۡثُوثَةٌ ١٦ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ﴾ [الغاشية: ١٣-١٦]، فبالإمكان تفسير هذه الآيات، ولكن ليس بالمقدور تخيلها ووصفها.

- فما سرر الجنة، وما شكلها، وكيف رفعت؟ وما طريقة الرفع؟ (عفوًا لا مجال للخيال).
- وهل أكواب الجنة كأكواب الحياة الدنيا بجميع أشكالها وصناعتها؟ (عفوًا لا مجال للخيال).

وكذلك النمارق والزرابي بصفّها وبثّها... فليس هناك مجال للخيال والوصف واستخدام العاطفة في الكلام بدلاً من العقل؛ لأنها خارجة عن نطاق المألوف، فالخيال هنا لا يمكن أن يصل إلى خلق الله وإبداعه غير المرئي.

أما خلق الله وإبداعه المرئي، فانظر كيف تستطيع أن تصفه دون الخروج والبقاء في نطاق المألوف في قوله عَزَّوَجَلَّ في تسلسل آيات السورة نفسها: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلۡإِبِلِ كَيۡفَ خُلِقَتۡ ١٧ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيۡفَ رُفِعَتۡ ١٨ وَإِلَى ٱلۡجِبَالِ كَيۡفَ نُصِبَتۡ ١٩ وَإِلَى ٱلۡأَرۡضِ كَيۡفَ سُطِحَتۡ﴾ [الغاشية: ١٧-٢٠].